دراسات في الأدب السوفياتي المعاصر

# صدر الدين عيني

بقلم جليل كمال الدين

( احتفل الاتحاد السوفييتي ،والشعبان الطاجيكي والاوزبكي اللذان يشاركاننا في عائلة شعوب آسيا وافريقيا ، وفي التراث الاسلامي الجليل ، قبل زمن ، بمرور ٩٠ عاما على ميلاد صدر الدين عيني . وقد كتبنا هذه الدراسة المتواضعة خصيصا ، في معرض التعريف والبحث الادبي المقارن ) .

## ـ ١ ـ

حين يكتب كاتب عربي عن الشاعر الطاجيكي البارز ، والمناضل من اجل الحرية والاشتراكية والسعادة ، صدر الدين عيني ، لا يستطيع ان لا يلاحظ ان مثل هذا الشاعر ، ومثل الطريق الشعري والحياتي الذي سلكه ، انما هو في الجوهر ـ وبغض النظر عن التفصيلات التي تتعلق بالبيئة المحلية والظروف الخاصة ـ تجسيد لمطامح الشرق الشعرية وتمثيل حقيقي لاروع واجمل ما في واعية شعراء الشرق المعاصرين منذ نهاية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين . ان ارتباط هذا الشاعر بالحياة والتحامه الوثيق بشعبه ونضاله من اجل الجديد والتجديد في الشعر والفن والحياة والمجتمع ، ثم مشاركته الفعلية في النضال من اجل هذا الجديد والتجديد .. ان كل هذا هو ملامح مميزة لاكثر شعراء الشرق ، والشرق العربي بصفة خاصة . ان الذي يربط امثال صدر الدين عيني بشعراء العالم العربي المعاصر هو جملة امور لا تحتمل التبسيط وان احتملت التلخيص : هو الروح الانسانية المشتركة وروح الشرق الجديد ، وتقاليد التراث المشترك ، والنزوع نحو الحرية لا على صعيد الاحلام، والتأمل بل على صعيد المشاركة الفعلية واداء ضريبة الحرية مهما كانت ثقيلة ، حتى وان تطلبت الدم والروح ذاتها .

ان صدر الدين عيني يجسد مثال المخضرمين من شعراء ما قبل اوكتوبر الذين امتد بهم العمر بعد اوكتوبر عقودا من السنين . فهو في بعض تراثه وابداعه ينظر الى شعراء امثال خليل مطران والزهاوي والرصافي وحافظ ابراهيم وشوقي ، ولكنه في بعض اخر من ابداعه ينظر الى كل الشعراء المجددين على نحو اخر : الشعراء الذين تمخضت بهم ثلاثينات واربعينات قرننا في مصر وسوريا ولبنان والعراق ، الشعراء الذين غنوا الحرية وتطلعات التقدم والاشتراكية.

وقبل كل شيء فان صدر الدين عيني هو شاعر سوفييتي ، شاعر طاجيكستان السوفييتية .

ان صدر الدين عيني ( ١٨٧٨ ـ ١٩٥٤ ) هو مثال رائع لشاعر عاش كل مراحل التجديد والجديد في شعبه وامته ، ووطنه الصغير والكبير ، وهو جديد وتجديد ليس في الشكل وانما في المضمون ايضا، وعلى نحو فني وعلى نحو اجتماعي .. جديد ابتدأ بالنضال من اجل حرية شعب طاجيكستان والتخلص من النير القيصري ، واستمر في النضال من اجل ترصين الاشتراكية وتوطيدها . وهو هنا ينظر الى مايا كوفسكي ، وكما سنرى فيما بعد ، كان ثمة كثير من التأثيرات والتصاديات المتبادلة بينهما . لقد غنى صدر الدين الحياة والشعب والحرية والربيع مواصلا النضال على مختلف مراحله ومستوياته وبكثير من وسائله ، ربطا بين الفكر والحياة ، بين الشعر والشعب، بين القلب والعقل ، مستفيدا من التراث ومطورا اياه على نحو خلاق . ومع انه ابن طاجيكستان الا ان كتابته الشعر بلغتين : الطاجيكية والاوزبكية ، وتجسيده مطامح شعوب اسيا الوسطى وبخاصة شعبي طاجيكستان واوزبكستان .. يمنح الشعبين مما حق التمجد به.

## ـ ٢ ـ

ينبغي ان نقول ، باديء ذي بدء ، ان صدر الدين عيني ليس شاعرا فحسب ، وانما هو كاتب ومفكر وفيلسوف ومناضل اجتماعي ايضا ، فقد كتب كتبا في تاريخ طاجيكستان واوزبكستان ، وأسهم بنشاط في العمل الصحفي والنشر ، ومرت عليه فترات انقطع فيها عن كتابة الشعر ، الا ان الشعر ظل ، برغم كل ذلك ، طريقه المفضل ـ طريقه الحياتي الفني ، اذا صح التعبير ـ للاسهام في معركة الحياة والجمال والحب والحرية والربيع والانسان . فحتى في النثر الذي كتبه كان الشعر يتخلله لا حشرا واقحاما ، بل تطلبا عضويا لا مناص منه .

ان ابداع عيني المتعدد الحدود والفني الافاق انما هو مثال واضح للعمل المكرس من اجل الشعب والحرية والاشتراكية . لقد تغلغل الربيع قلب هذا الشاعر الكبير فاتى بثمار امتدت طيلة فصول حياته ، وكانت ثمارا تختلف كما وكيفا فيما بينها ، وان توطدت في النهاية ، في كونها ثمارا ربيعية طاجيكية شرقية سوفييتية .

ان شعر عيني يظل احد ابرز ملامحه المميزة ، بل هو وجهه

الحقيقي الاصيل . وفي هذا ينبغي ان نستمع الى رأي يوليوس فوتشيك ، المناضل الجيكي الذي نذر قلمه وروحه لقضية حرية وطنه وتحرير البشرية من نير الفاشية ، ان نستمع الى رأيه في شعر صدر الدين عيني . يقول فوتشيك : « حين تعرفت على طاجيكستان صرت اكرر غالبا لنفسي اشعار عيني هذه :

« وحتى اسم طاجيكستان
لم يعرفه العالم قبل خمسة عشر عاما
كان اسمها كوخيستان ـ وطن الحزن والخداع
الوطن الضائع بين كتل الاحجار الضخمة » .

اعيد هذا لكي لا انسى : اجل فها هو بلد رائع غني يمضي بخطى مصممة نحو حياة متحضرة مرفهة .. انه نفس البلد الذي تحدر الينا منه في اوروبا ، قبل عشرين عاما ، صوت عذاب رهيب . وقبل بضع سنين ( وهي لوح فرونا ) سمعنا نحن في اوربا الوسطى عن البربرية في آسيا الوسطى . اما الان فهنا الثقافه ، والتطور والنهوض الصاعد .. اما صوت البربرية فيدوي في اوروبا الوسطى .. » (١)

نلخص هذه الكلمات ـ وكانها معنا على موعد ـ جوهر شعر عيني وكل شعراء آسيا الوسطى الذين عاشوا ما قبل الثورة وبعد الثورة آلام الشعب وآماله . فصوت العذاب الرهيب صوّره ونقله الينا بشكل أمين ، فنان ، صدر الدين عيني . وصوت الثقافة والتطور والنهوض الصاعد صورته ايضا لنا ريشة صدر الدين وفيثارته . ان تاريخ التطور الشعري والفكري لصدر الدين عيني ، هو ، على نحو ما ، تاريخ تطور طاجيكستان وانتقالها من عذابات الاقطاع في ظل القيصرية الى جنان الاشتراكية في ظل العهد السوفييتي .

لقد كانت الحياة الاجتماعية في طاجيكستان ـ وكانت تتبع امارة بخارى وامبرها الذي كان تابعا للقيصر ـ حياة القنانة الاقطاعية . كانت آسيا الوسطى قد منحتها رأس المال الروسي الذي كان ظلا في بعض قطاعاته لرأس المال الاجنبي وبخاصة الانكليزي والاميركي . وكانت سكة حديد ما وراء بحر قزوين والتي بلغت عشقاباد ( آشخاباد ـ عاصمة تركمانيا السوفييتية اليوم ) قد ابتدأت تفتح آسيا الوسطى لمخالب رأس المال الروسي ، على حد كلمات لنين : ( دروس الازمة، المجموعة الكاملة ، مجلد ٥ ، ص ٨٢ ) . وكانت امارة بخارى تحقق بحلفها الوثيق وخضوعها التام فيما بعد للنظام القيصري مصالح رأس المال الروسي . فهنا أيد عاملة رخيصة وانتاج للقطن يتم على حساب وفي شروط أبشع استغلال لفلاحي آسيا الوسطى . كان الامير وحاشيته هم الوحيدون الذين يتمتعون مع بعض الاقطاعيين هنا وهناك بخيرات الامارة الواسعة ، اما الشعب فيعيش في ظلام دامس ليست ظلماته بأخف وطأة من ظلمات القرون المظلمة التي عاشتها الشعوب العربية طويلا . وهنا كان الاستغلال مركبا ، فهو ليس القنانة الاقطاعية الابوية فحسب وانما هو استغلال رأس المال العالمي ايضا . انه وضع شبيه بالوضع الذي كانت عليه مصر بعد الاحتلال الانكليزي وخصوصا في اواخر القرن التاسع عشر ، وبالوضع الذي كانت عليه العراق وسوريا والبلدان العربية بعد انحسار الحرب العالمية الاولى عن هزيمة الاتراك وثبوت قدم المحتلين الانكليز والفرنسيين .

وكان لا بد ان تنشأ في ذلك الوضع الظالم المظلم الذي كانت فيه بخارى ، الامارة الواسعة التي كانت تشمل طاجيكستان واكثر مناطق اوزبكستان ، أغان شعبية واشعار صنوة لها تعكس الحزن والاسى الذي كان يعمر ارواح الناس ، الكادحين منهم والمثقفين على حد سواء . تقول اغنية بخارية حزينة ان جلاوزة الامير لم يكونوا بشرا ، بل سلقا يفرضون الضرائب ويجبونها بمنتهى القسوة ، ومن لم يستطع اداء الضريبة نقدا كانوا يصادرون بيته ، ومن لم يستطع او لم يمتلك ما يؤدي به الضريبة نقدا او عينا ، كانوا يسمون اولاده وبناته :

« آه ، لقد ثار التراب في الطريق ، آه يا جنيتي العامرة بالخزامى
لقد ضربوني بالسوط بضراوة ، آه يا جنيتي العامرة بالخزامى
ورموني على كفل حصان ـ لقد سقطت في السبي
ليس في منطقة ( أمين كار ) ماء ..
كما ليس عند خادم ( عالم خان ) شفقة ..
فاحتفظوا بلعبي ، آه يا جنيتي العامرة بالخزامى
واحكوا لصديقاتي الامر ـ لقد سقطت في السبي .
لقد تركت قلتي على الحجر ، آه يا جنيتي العامرة بالخزامى
وظل منديلي في التراب ـ فقد استافوني سبية » ..

فلا غرو ، اذن ، ان يهيم الفلاحون على وجوههم ، تاركين المناطق التي تلقوا فيها الاهانة والسبي والسلب والنهب الضاري ، باحثين عن عمل في المدن . وكان هؤلاء احتياطيا كبيرا للشغيلة في المدن . ونشأ بينهم ، تجسيدا لحبهم لوطنهم والمناطق التي هجروها مرغمين، نشأ فن غنائي شعري من فولكلور الشعب يسمونه ( الغربة ) ـ وهو بالطاجيكية « غريب » (٢) ان هذا اللون يحمل شحنة انسانية دفيقة، وهو حزين شجي كأشعار الغربة في بلداننا العربية ( مثلا بين فلاحي العراق،الذين هاجروا في العهد الملكي المقبور الى الكويت وسواها، وقد صور المرحوم السياب بعضا منه في اشعاره ) . وله اشباه كثيرة بين كل اشعار الغربة في البلدان العربية ، وفي تاريخ الشعوب العربية في مراحل خلت . فاذا قال الشاعر العربي مثل هذا :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

جاء الفولكلور الطاجيكي باغاني الغربة يقول :

« في القلة ماء ، ولكننا نهيم يقتلنا الظما
بيوت حبيبة وراءنا .. اما نحن فنهيم في هذه الدنيا
مثات السنين تقنا الى عتباتها .. كأننا شحاذون
اما الان فنهيم يقتلنا حزن مفارقتها » (٣) .

وفي مثل هذا الجو وهذا المناخ النفسي والشعوري والفكري نشأ صدر الدين . لقد تفتحت عيناه ( ولد عام ١٨٧٨ ) على المأساة والفجيعة والوان الحزن . ولم يكن للشعب ذنب في هذا ، فهذا كله ذنب الاقطاع والقنانة واستغلال رأس المال والامبريالية . وكان لا بد ان ينشأ فن شعري ،او على وجه ادق ، مذهب شعري وادبي جديد يعكس صوت الشعب في مقابل تلك الالوان والمذاهب التي تمجد اسم الظالمين مهما كانوا . كان تيار ادبي يدعى « الجديد » . وكان الاحرار والاوزبك في صف هذا « الجديد » ( وهو معادل لما ندعوه « الابتدائية » او ـ على وجه اصح ـ الرومانتيكية ). وكان هذا التيار يعكس صوت الشعب كما تريده البرجوازية الحرة المحلية ـ في البداية ـ في آسيا الوسطى . ولم يكن لهذا التيار ان يعكس تماما مطامح الشعب وصوته العريض الضخم . فسرعان ما سقط في تقليد شعر صوفي يدعونه « البديلية » ( نسبة الى الشاعر ميرزا عبد القادر بديل : ١٦٤٤ ـ ١٧٢١ ) ، وكانت ملامحه هي السلبية والاغراق في الحزن ونوعا من الاستسلام للقدر ، والذوبان في الماضي . ومرة اخرى ينزع الشعب عنه غلافا لا حاجة له به ، فينطلق احراره باحثين عن

١ ـ يوليوس فوتشيك « التحية الى عيني » ، نشرت في جرائد طاجيكستان في ثامن وعشرين سبتمبر ( ايلول ) ١٩٣٥ . والاشارة هنا الى النازية وتعاظمها في المانيا وقتذاك . وفوتشيك هو البطل الجيكي ، الكاتب الذي اعدمه الالمان .

٢ ـ واضح ان الاصل هنا عربي من كلمة غريب وغربة

٣ ـ نماذج من الفولكلور الضاجيكي ، ص ١٩ .

الحقيقة كما هي في الواقع ، الحقيقة الموضوعية .

وقد وجدوها في ظروف ايامذاك ، مفيدين من تجارب اخوانهم احرار الروس والاوكرانيين امثال بيلنسكي وجيرنيشليفسكي ودوبروليوبوف ونكراسوف وشفجنكو ، وجدوها في التيار الدمقراطي الثوري في الادب والفن والفكر . وفي طاجيكستان واوزبكستان كان طليعة هذا التيار هو أحمد دانش ، وكان هذا رسول أمير بخارى في بعثة الى القيصر الروسي، فلما جاء الوطن صار يكتب ويحكي قصة النهوض والجديد في روسيا . وكانت روسيا بالنسبة لشعوب آسيا الوسطى تعد بمثابة اوربا . وتعرض دانش لغضب الامير . ولكن الافكار التقدمية والدمقراطية تغلغلت آسيا الوسطى وسواها ، فكان ممثلون بارزون لها مثل ميرزا اخوندوف في اذربيجان ، وفرقات في اوزبكستان ، وآباي في كازاخستان ، وعبد الله طوقاي في تاتاريا . وكان تلامذة لدانش منهم سامي بستاني ( ١٨٣٨ – ١٩٠٨ ) الذي كتب عنه صدرالدين عيني ، فيما بعد ، يقول : « في ذلك الوقت الذي كتب فيه الكثيرون من رجال القلم قصائد المدح في الامير والبلاط وحاشيته ، كان سامي يفضح تفاهة ودناءة هؤلاء . وفي هذا سر معجزته الكتابية » . ومنهم كتاب ومفكرون طليعيون امثال : مضطرب ( ١٨٤٤ – ١٨٩٧ ) وتحسين ( ١٨٦٦ – ١٩٣٤ ) وصدري ضيا ( ١٨٦٥ – ١٩٣٦ ) . وكان لهذا الاخير اثر كبير على صدر الدين عيني ، فقد التجأ عيني اليه بعد وفاة كلا والديه ، وعمل عنده خادما، فاطلع بحكم العمل على الوسط الادبي الحر الذي كان ينتمي اليه ضيا ، وتنعقد مجالسه في بيته ، ومن هنا انطلاقة عيني الشعرية الاولى .

– ٣ –

ولد عيني في قرية سوفطاري ( وهي الان من اعمال منطقة بخارى في اوزبكستان ) ، وهناك عاش عشرة اعوام بين فلاحين من مختلف القوميات : طاجيك واوزبك وعرب وفرس مهجّرين من مشهد. وتعرف عيني على لغات الساكنين . وقد أثر والده سيد مراد خوجه عليه تاثيرا كبيرا . فهو الذي حبب اليه الشعر . وكان يحرص على ان يحفظ ابنه نصوص الشعر عن ظهر قلب . بل كان هو ينظم بعض الابيات . ومرة سأله ابنه عن السر في فن الشعر ، فاجاب يقول : « لا تسمني ، يا بني ، شاعرا . فالانسان الذي وفق الى نظم بيت او بيتين لا يصبح شاعرا . ان كلمة «شاعر »(١) تنحدر من « الشعور » . ومع ذلك فهذا لا يكفي لكي يكون المرء شاعرا حقيقيا . فالشاعر ملزم ، مثل ايسو وصائب وبديل وحافظ (٢) ان يعرف الحياة كيما يستطيع الاجابة باشعار رائعة عن كل تحدياتها ومظاهرها ». وكان هذا هو الدرس الاول لعيني .

لقد صمم عيني ان يعرف الحياة .

وقد كلفته هذه المعرفة كثيرا .

ارتحل شاعرنا ، وهو الفقير البائس ، مع اخيه محي الدين الى بخارى في عام ١٨٩٠ ، فرأى بأم عينيه مظاهر التفاوت بين ثراء فاحش وفقر مدقع . وكانت القريحة مطواعة ، ففاضت وسجلت ريشته مثل هذا :

« اولئك الادنياء مرفهون

وهؤلاء الشرفاء معذبون

بعض يكدح دون هوادة اناء الليل واطراف النهار

وآخرون يعبثون ... يسفحون دنان الخمر صبحا ومساء

وكانت هذه هي شرارة الاحتجاج الاجتماعي عنده ، شرارة باكرة لكنها واعدة بالكثير . ولم يفد عيني من المدرسة لا في القرية ولا في المدينة ، شانه في ذلك شأن طوقاي شاعر تاتاريا ، فالمدرسة كانت تسير وفق نسق ظالم مظلم حرمت فيه العلوم العصرية وليس فيه سوى أظلم ما في التراث تتواوله ايد جاهلة جاسية . لقد تلقى عيني أصول الادب من فم الحياة مباشرة . كانت لديه عدة الشعور والموهبة والاستعداد ، وكان حظه أنه كان في بيت صدري ضيا حيث تلامذة دانش الاحرار يجتمعون ( امثال : صاحبو ، وسامي ، وتحسين، وغولشاني ) . ودخل اسم عيني عالم الادب في عام ١٨٩٥ . وكانت اسماؤه المستعارة آنذاك هي « المهان » ، و « المحتاج » ، و «التعيس»» و « المعذب » ( وهو يذكر ، في ذلك ، بمكسيم غوركي أي ( المر ) اسمى نفسه هكذا – واسمه الحقيقي الكسي بشكوف – تكنية ، حيث كانت حياته مترعة بالمرارة ) . اسماء ناطقة بواقعه وواقع شعبي طاجيكستان واوزبكستان، بل والشعب الروسي وعموم شعوب الامبراطورية القيصرية آنذاك . وكان شعر عيني حزينا ، ولكنه كان حادا لا يخلو من نغمات السخط والهجاء ، ومن الحان الثقة بالمستقبل الزاهر .وكان عيني يكتب « الغزل » على نحو رائع ، وبالشكل الذي تجري فيه قصائد الغزل العربية الكلاسيكية . ولكنه لم يحجز الشعر في مجال غنائية الذات فحسب ، بل انطلق به الى غنائية المجموع :

« تدعو الحبيبة اليها الثري والمتنفذ .

ولكن اذا امتلك عيني الفقير الذهب ... فماذا سيكون ؟ »

وكانت قصة عيني مع بلاط الامير قصة معروفة وشهيرة وذات دلالة . فقد ارسل الامير اليه الرسل يدعوه الى بلاطه ، ولكن عيني رفض وأصر على الرفض ، وهدد الرسل بحرق كتبه وآثاره فتركوه ، وقال الامير آنذاك ان هذا الشاعر لا يليق ببلاطنا ! أجل ، فلم يكن عيني شاعرا بلاطيا . كان أجلّ من ان يكون كذلك ...

– ٤ –

كان لثورة ١٩٠٥ الاثر الكبير على شعر وتطور شعراء آسيا الوسطى التقدميين والدمقراطيين ، امثال اخوندوف ، وطوقاي ، وصابر ، وعيني . ان الفترة ١٩٠٥ – ١٩١٧ هي الفترة التي حدد فيها عيني موقفه ومكانه في الادب والحياة . وقد أسهمت المجلة الهجائية « ملا نصرالدين (٣) بقسطها الفعال في نشر الافكار الدمقراطية في القفقاس وآسيا الوسطى . ولم يكن الشاعر بمبعدة عنها . وكان طريقه الى الثورة يمتد عبر الدمقراطيين التنويرية . فلقد كان يؤمن بأن شعبا جاهلا لن يقدر قيمة الحرية ، ولذلك لا بد من الثقافة والتنوير ، قبل كل شيء . وتأكد هذا لديه بعد فشل ثورة ١٩٠٥ . وهكذا هب مع اصدقائه ليؤسس في عام ١٩٠٩ جمعية سرية باسم « تربية الاطفال » . وبصعوبة كبيرة انشا مدرسة اهلية عصرية وكان يكتب لتلامذتها الاشعار والقصائد ، ويسهم مع اصدقائه في التدريس فيها ، في بخارى . لقد كان تأسيس هذه المدرسة عملا كبيرا اقض مضاجع الامير والرجعيين في بخارى . فمن هنا كانت التربية انسانية دمقراطية تنويرية ، ولم يكن ثمة تفرقة دينية او طائفية ، انما كان المقام الاعلى للعقل والفكر والاخوة الانسانية .الانسان – قبل كل شيء – .

---

١ – دخلت هذه الكلمة العربية لغات شعوب آسيا الوسطى ، وكافة الشعوب التي تدين بالاسلام في الامبراطورية القيصرية ، فهي واحدة المعنى في الطاجيكية والاوزبكية والتترية والبشكيرية والاذربيجانية وسواها ..

٢ – هؤلاء هم شعراء اوزبكستان البارزون المشهورون في القرن التاسع عشر وما قبل اوكتوبر

٣ – « ملا نصرالدين » هو الشيخ نصرالدين ، او جحا ، كما نعرفه في العربية . وجدير بالذكر ان نكات وامثال ووقائع وقصص نصرالدين مشهورة في عموم آسيا الوسطى ، ولدى كافة الشعوب التي تدين بالاسلام في الاتحاد السوفييتي . وقد اسميت بعض المسارح باسمه . كما وقد كتبت كثير من الدراسات والتآليف فيه ،وخصوصا في الجوهر الاجتماعي الانتقادي الفلسفي لحكاياته وقصصه .

ولم يكن هذا هو العمل الوحيد . فقد انخرط في النضال الفعلي . فحين اشتد الاستغلال الراسمالي في آسيا الوسطى اخذ الفلاحون الفقراء يبيعون ما عندهم من أرض لقاء الديون المتراكمة . ولم يكن للشاعر الا ان يثور ، وينصح اخوته الاصدقاء ، الفلاحين الفقراء ، أن لا يفعلوا هذا :

« اسمع ايها الصديق ، يا سند حياتي
يا فرحة روحي ، يا ضعفي !
اود ان اقول لك كلمة حكيمة :
لا تبع أرضك !
بل هي أفضل .. هي الام الرؤوم ...
لتكن فاحلة .. سوداء .. لكنها عابقة بالارج كالمسك
لا تبعها ابدا .. لا تبعها (١) »

ولكن الامور تطورت على نحو رهيب .. فالرجعية القيصرية والبخارية ( نسبة الى امارة بخارى الاسلامية ) صارت تقيم المذابح المفتعلة بين القوميات والطوائف . وكانت مذبحة سمرقند في ٢٣ يناير ( كانون الثاني ) ١٩١٠ . وادرك عيني والاحرار مغزى هذه المذابح. فكانوا يفاومونها محاولين توعية الشعب بجوهرها واسبابها، وداعين الى اخوة الشعوب وتوحدها في النضال ضد القيصرية والرجعية ، العدو الواحد المشترك . وسرعان ما وحدت الحرب العالمية الاولى اصوات شعوب الامبراطورية القيصرية ، كما اذابت ، من ناحية اخرى ، الخلافات غير المهمة بين طغاة البلاد الصغار والكبار. لقد انطلق عيني الى خط النار الاول ، فحتى مدرسته اغلقوها ، وصاروا يطاردونه هو نفسه . ولذلك لم يكن له ، وهو الثوري الذي هضم الثورة حياتيا وباقتناع تام الا ان يشارك في الانتفاضة التي عمت آسيا الوسطى في السنتين ١٥ - ١٩١٦ . وحين هبت ثورة ١٩١٧في اوكتوبر ، كان عيني مع طليعيي احرار اسيا الوسطى يدعو الى الحرية والتحرر الكامل من عنت الامير ، والى الالتحاق بقافلة الحرية في موسكو ولينينغراد . ولكن الرجعية كانت له بالمرصاد . فقد اختطفوه من بيته ، وضربوه ضربا مبرحا ، وزجوا به في السجن. ولم ينقذه الا زحف الحرية والاعلام الروسية الى بخارى . واينما كان عيني ، سواء في بخارى ام في سمرقند او سواهما ، كان الرجعيون يهبون ضده مستغلين سلاح الدين والقومية المنغلقة على نفسها . وكانت اشعاره في هذه الفترة تعكس تحوله الثوري الحاسم الذي وجد لنفسه سبلا شتى ومظاهر مختلفة في التعبير الشعري ، منها وحدة الذات والموضوع :

« آه يا وطني ! صعب علي فراقك
لو استطعت لمنحتك حياتي المتواضعة هذه !
ترى .. أيمكنني الصبر حين تقتل الغربان رعشات البلابل ؟ »

وبعد ثورة اوكتوبر ، كان الشاعر صدر الدين عيني ، مثل كافة الشعراء الاحرار في اتحاد الجمهوريات السوفيانية ، في صف الثورة ، جنديا من جنودها . وقد عمر قلبه بالفرح والسعادة البالغة . وتحول شعره ، وئيدا نحو الواقعية الاشتراكية ، لكنه احتفظ باسلوبه الخاص ، وتفرده ، ومميزاته الذاتية . فعيني اعتبر الثورة - منطلقا من فهم الشعب ومن نفسيته ، اسطورة سعيدة تحققت، ان اوكتوبر هو « طير السعادة » (٢) » - «خومو» بالطاجيكية- وها قد قدم طير السعادة :

« آه يا اوكتوبر ،
لقد وجد الانسان العامل المهتضم الحقوق ، وقد عركته المحن والاحزان .
وجد الطريق الى السعادة بفضلك ...
آه .. يا طير السعد !
سد الى الابد !
واخفق في ظل سعادة الكادح الذي خبر الظلم وعاناه
وتوطد مكانا في هذه الارض » .

بيد ان الصراع مع الماضي لم ينته ، بل بدأ . فان امارة بخارى لما تحرر ، والرجعيون في كل مكان يطاردون جنود الحرية ، ومنهم عيني . وفي السادس من اب ١٩١٨ ، قتل الرجعيون بوحشية اخا صدرالدين ، وهو المدعو : سراج الدين . ودفع مقتل الاخ عيني ليس الى المراثي الثورية فحسب ، بل الى ترصين الذات ايضا والدعوة الى ترصين صفوف الثورة بكل وسيلة ممكنة كي يتم لها الانتصار وتصفية الرجعية . كان عيني يدعو ، وهو في طاشقند ، الى تحرير بخارى . وكان يدعو الى ذلك بكل وسيلة ، بالشعر ،وبالعمل الصحفي ، والعمل الاجتماعي . وظهرت في شعره ، في هذه الفترة، الحان فولكلورية من ابداع الشعب . فانطلقت « مارشانه » ومنها « مارش الحرية » ، باللغة الاوزبكية ، حيث نسمع :

« لقد نور الصبح في النهاية ! واشرقت الشمس !
شمس الحرية ، الشمس الواحدة !
وازيح الظلم من أرضنا
وحل يوم الحرية ! »

وكتب عيني « المارسيليز » - « لنشيد الحرية » - باللغتين الاوزبكية والطاجيكية ، وفقا لانغام والحان شعبية ، ومن هنا كان له تأثيره البالغ في صفوف الشعب ، وبالخصوص بين الشغيلة والشبيبة .

واتسع افق عيني ، فكانت رؤيته الجديدة للعالم ، وكان ربيعه الجديد .

لقد توجه عيني الى الكادحين العرب وسواهم من كادحي الشرق، بالنداء للثورة ، مباركا نضالهم الذي ابتدأ اذ ذاك حارا عنيفا ( ١٩ - ١٩٢٥ ) في مصر والعراق وسوريا ولبنان وفلسطين والجزيرة ،وتركيا وافغانستان وايران وغيرها ... انه يحاول ان يقنعهم ان الفجر قريب رغم فداحة التضحية :

« ان فجر الغد قريب
فاستعد بأسك يا شعب الشرق !
ولكن ترى ايغفو شعب الشرق
أمام الفجر ؟!
ان وضع العبد
لم يعد لبوسا ابديا لشعب الشرق !
فاما النضال بشرف ،
واما الموت باستحقاق ! »

وكتب عيني كثيرا من الاشعار في هذا الموضوع ، ومنها ما كان تحت عنوان « الانقلاب (٣) » ، ( ويقصد الثورة ) التي يريدها ان تعم الشرق كله ، الشرق المتآخي الواحد :

---

١ - كم يذكر هذا بالحيل التي لجأ اليها الصهاينة ايام الانتداب البريطاني في فلسطين ، حين كانوا يضطرون الفلاحين العرب الى بيع اراضيهم لهم ، بمختلف السبل ، فيفقدون بذلك حق الوجود، ويرحلون جبرا او اختيارا ..!

٢ - في الاساطير العربية ايضا ، وخصوصا لدى فلاحي العراق ( الفرات الاوسط ) يوجد مثل هذا .. فطير السعد ( كما يسمونه ) لا يحط الا حين تكون السعادة العظمى ، وهو من طيور الجنة .

٣ - مقصود بهذه الكلمة - وهي موجودة في لغات شعوب آسيا الوسطى - الثورة ، واصلها العربي واضح ، وقد دخلت اللغة التركية وسواها ، واصبح لها مدلولها الواضح في العقد الاول من القرن العشرين .

« لا بد للشرق ان يستيقظ في النهاية
حتى وان خيل للبعض ان هذا شبيه بالحلم »

وقد صدقت نبؤته . فها هي شعوب الشرق تنزع الغل، وتبني حضارتها الجديدة ، منطلقة من الحرية وعلى صعيد الدمقراطية نحو التحولات الاشتراكية .

ان كامل حياة عيني بعد اوكتوبر حتى وفاته ( عام ١٩٥٤ ) ليشهد بعمق وقوة على وثوق وايمان الشاعر بالاشتراكية ، ووحدة مطامح شعوب الشرق ، ووحدة كلمة الانسان . لقد نذر عيني شعره للبناء الاشتراكي ، كما فعل مایاكوفسكي وسواه .

ورغم ان الرجعية قتلت اخا اخر له هو محي الدين ، ورغم حرب الرجعية عليه حتى بعد تحرير بخارى واقامة السلطة السوفيانية، فالشاعر لم يتزحزح قيد شعرة عن ايمانه بالجديد ، وبالثوري الذي جاء به اوكتوبر . لقد كان شعره ونثره ( وقد كتب كتبا في تاريخ بخارى وطاجيكستان واوزبكستان ، وكذلك روايات تاريخية بطولية عديدة ، وعديدا من المقالات والكلمات وسواها في صحف طاجيكستان واوزبكستان ) .... لقد كان كل هذا مصداقا لافكاره ، وترجمة لايمانه العارم بالحياة ، وبالانسان ، وبالربيع . ان الثورة لديه هي ربيع دائم :

« لقد اتى الربيع ، فاستيقظ ، وانهض !
أفلم تسمع هذه الاصوات ؟
ان طيور الربيع تزقزق وتغني
... طيور فتية .. »

أو :

« تعالي ، انت ، يا حسناء الربيع !
ايتينا بالسعادة! وادفئي علينا اشعة النور !
فمن طول هذا الشتاء
شحبت عيوننا ، وذوينا ... »

وكان يؤمن ان التغيير يبدأ بتغيير الذات ، فالثوري يصنع نفسه بالثورة :

« ان كنت تبتغي تغيير وجه الارض
فابدأ بتغيير نفسك ! » (1)

ومن مجموعاته الشعرية الشهيرة « شعلة الثورة » ( ١٩٢٣ ) بالطاجيكية ، و « شرارات الثورة » بالاوزبكية ، في ذات العام . وكانت هذه هي مجموعاته الباكرة . ويختلف شعره عن الشعر الطاجيكي الكلاسيكي في انه قد تخلص من المدح والتخلص والطلب وسواه من مستلزمات النسق القديم . ان شعره يسير ، كشعر عبد الله طوقاي ( شاعر تاتاريا الشهير ، ما قبل ثورة اكتوبر ) ، مقتربا من المثل الواقعي الذي بدأه بوشكين ووالاه نكراسوف ومایاكوفسكي فيما بعد . اما ابطال عيني فهو يتحدث عنهم بمثل هذا : « ان ابطالي هم اولئك الناس الذين اعرفهم .. والذين رأيتهم في بحر سنين كثيرة » . ان ابناء الشعب هم ابطاله ، وابداع الشعب يسر بل شعره ، ولذلك لا عجب ان تتحدد ملامح شعره، حتى وفاته ، في تمجيد الوطن ، والوطنية الملتهبة الواعية ، والانسانية ، والاممية معا .

ويفيد عيني من كل جديد فيغتني به ، فنجد عنده التكرار والتقطيع والوحدة الداخلية ، كما عند الشعراء الجدد .

غير ان الفولكلور يحتل عنده موقعا خاصا . والحق انه لا يطعم شعره بالفولكلور فيأتي اقحاما وحشرا واضافة مصطنعة ، وانما ينشىء شعره بروح الفولكلور على تنسق عضوي . ويلتحم الفولكلور عنده بالشكل والمضمون معا ، وبوحدتهما العضوية الوظيفية ، ففي شعر له عن الحرب العالمية الثانية والنضال الوطني في ارض السوفيات ، يقول :

« لقد هجم الذئب بغدر .
لكن الاسد طرده شر طردة
وها هم الناس على اختلافهم وفي كل مكان
يغنون مثل هذه الاغنية :
لتنفراد البطلة !
لتنفراد البطلة ! »

وهو يشبه هتلر بجنكيز خان ، في رواية تاريخية . ويشبه ابطال الشعب ببطل « شاه نام » للفردوسي ، الحداد كاوه ( وهو بطل الاكراد الاسطوري ايضا ) ، في ثورته ضد الغول ذي السبعة رؤوس . وتشيع الاقوال المأثورة في بعض اشعاره فنسمع مثلا :

« هذا عرين الاسود ـ مهد البأس
وهنا لا تعيش الا الاسود والاباة الشجعان » .

أو : « ليس للحمير ان تعيش حيث يعيش الانسان »

أو : « من ذا الذي يمنح الرحمة لمن لا يستحقها
أفيوجد من يشفق على الافعى نافثة السم ؟! »

* * *

لقد درس عيني عند بوشكين ومایاكوفسكي ، ولكن كان له ، مع كل ذلك مدرسته الخاصة ، وطريقته المتفردة . ان روحه الشرقية ، وفهمه العميق للتراث ، وتعلقه بالشعب والحياة وخبرته المتطاولة وملامح وطنه طاجيكستان ، ان كل هذا قد دفق ربيعا شعريا متميزا. فمع انه يخاطب مایاكوفسكي هكذا :

« لقد سمعت قبل ثلاثين عاما
بشعرك
فالتهبت نارة منه في قلبي
وقد ذخرت لهب هذه الاشعار في نفسي . »

غير ان مارشاته الثورية لم تات تقليدا لمارشات مایاكوفسكي ، وظلت روح عيني على اصالتها : روحا شرقية ، طاجيكية ، وعت الجديد الاشتراكي وهضمته ، واضافت الى الواقعية الاشتراكية لبنات جديدة ، واصواتا جديدة . لقد فاض الشعر في روح عيني فعم حتى نثره ؛ وكان هو في هذا يراعي تقليدا شرقيا سار عليه الادباء العرب والفرس والترك والاوزبك وسواهم . ولعل افضل وصف لعيني هو انه ربيع الشعر المتجدد دوما ، وتلميذ الحياة ابدا .

موسكو ـ جليل كمال الدين

1 ـ يذكر هذا بحكمتنا العربية ، واقوالنا المأثورة التي تقول: ابدا بنفسك .. » والحق انه لا يمكن تصديق الثوري والايمان به، ان لم يكن في سيرته وسلوكه ثوريا ، وان لم يضرب للناس المثل بنفسه ....

صدر حديثا

اغاني الحارس المتعب

للشاعر بلند الحيدري

منشورات دار الآداب